الحياة الاجتماعية لعلماء البحرين في القرن الثاني عشر الهجري

بقلم: د. السيد عيسى الوداعي

مازال المهتمون بتاريخ البحرين العلمي منشغلين بتسليط الأضواء على حياة الأعلام، الذين كان لهم الدور الأكبر في إبراز اسم البحرين علميًّا، لكن ذلك الانشغال يبقى ـ في الأحيان جلّها ـ مراوحًا في المكان ذاته، فمازال منحصرًا في الدراسة الخارجية لأولئك الأعلام؛ إذ يكتفي جلّ الباحثين بترديد المعلومات المبثوثة في كتب التراجم، دون الغوص على ما قدّم أولئك من نتاجٍ علميٍّ في ما سطّرت أيديهم من كتبٍ ورسائل، ودون محاولة سبر ذلك النتاج، وتمييز منهج القوم فيه، وإبراز الجديد الذي قدّمه كلٌّ منهم.

وكما لم تحظَ المصنّفات البحرانية بالاهتمام العلميّ المنشود، لم تحظَ ـ كذلك ـ البيئة التي عاش فيها أعلام البحرين بكثير من الاهتمام، فلسنا نكاد نقف على دراسةٍ علمية لبيئة القوم السياسية، أو الاجتماعية، أو الاقتصادية، وانعكاس ذلك كله على الحركة العلمية، سواء في طورها الأول، يوم كانت مدرسة علميةً يشار

ـ محرم 1439هـ ـ اكتوبر 2017م

إليها بالبنان، أم عندما بدأت عوامل التراجع والتقهقر تلوح في أفقها، وصولًا إلى انتهاء دورها، واضمحلال أعلامها، الأمر الذي يفسّر كثيرًا من الغموض المتصل بحياة أولئك الأعلام.

ونحن نحاول ـ في هذا البحث ـ أن نسلّط الضوء على الحياة الاجتماعية التي كانت طبقة العلماء تحياها في القرن الثاني عشر الهجري؛ فإنّ في ذلك كشفًا عن العلاقات الشخصية بين أفراد هذه الطبقة، وكشفًا عن تأثير تلك العلاقات في المجتمع كلّه، ولعلّنا نتبيّن بعض العوامل المؤثرة في حركة التصنيف العلمي ومستواه.

لقد عُرِفت البحرين بكونها مركز إشعاعٍ علميّ؛ يستقطب محبّي المعرفة من شتّى البقاع، وهو أمرٌ لفت انتباه الرحّالة الأسباني **(كارستن نيبور)** الذي زار البحرين في ستينات القرن الثامن عشر، فقال متحدّثًا عن توجّه المثقفين الفرس إلى البحرين: «**وبما أنّ المثقفين الفرس يجب أن يفهموا القرآن، يقصدون هذه الجزر (يعني البحرين) ليتعلّموا العربية، لذا تدعى البحرين جامعة الشيعة**»[1]، كما أشار المؤرخ البحرانيّ الحاج محمد علي التاجر إلى المنزلة العلميّة، التي تبوّأتها البحرين خلال القرون الوسطى، فقال: «**كانت البحرين في القرون الوسطى ذات معارف عالية، وسوق العلم فيها رائجة، وفطاحل العلماء يوجدون فيها بكثرةٍ متناهية، فلا تكاد تخلو بلدة أو قرية من وجود عدةٍ منهم فيها، ولكل واحدٍ منهم مدرسة ملاصقة للمسجد الذي يصلّي فيه، يلقي فيها الدروس والأبحاث على تلاميذه،**

(١) نيبور، كارستن: وصف أقاليم شبه الجزيرة العربية، ترجمة مازن صلاح، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط١، ٢٠١٣م، ص ٢٩٢.

وقد تخرج من هذه المدارس الجمّ الغفير من العلماء الفضلاء، الذين سارت بذكرهم الركبان، وتحدّث بفضلهم القاصي والداني، وكان يقصدها الطلاب من أقاصي البلدان، وكانت تُدعَى بدار العلم، كما دُعِيَت به شيراز بعد ذلك.»[١]

ولقد ضربت الحركة العلمية في البحرين بجذورها في التاريخ، فهي ليست حركة حديثة، بل إنّ «**العلماء البحرانيين كان لهم حضورٌ في كلّ الأدوار، التي مرّت على المؤسسة الدينية الشيعية، منذ أيّام مدرسة بغداد في القرن الخامس الهجري.**»[٢]

غير أنّ الوجه العلمي المشرق للبحرين بدأ في الأفول، بعد أنْ فقدت المراكز العلمية فيها دعم الحكّام السياسيين، في أواخر حكم الصفويين للبلاد، فعانت تلك المراكز من التقهقر والضعف ما عانت، وهو ما أشار إليه علماء البحرين بجلاءٍ في بعض النصوص البوحية، التي وصفت واقع الحال في البحرين يومذاك، ومن أولئك العلماء شيخ الإسلام في البحرين، الشيخ سليمان الماحوزي (١١٢١هـ)، الذي وازن بين موقف السلطة السياسية من العلم والعلماء في العصور التي سبقته، وموقفها منهم في عصره، فقال متحسِّرًا: «**كانت الملوك تربّي العلم وأهله، وتحثهم بالترغيب والمصانعات على ترويجه، والترقّي في معارجه، ثمّ خلَف من بعدهم خَلْفٌ، كسدت لديهم سوق العلم، وسقط عندهم مقداره، وتأكّد لديهم احتقاره، لا جرم خمدت نار العلم وبار، وولّت عساكره الأدبار:**

فكأنّه بـرقٌ تألّق في الحِميثمّ   انــثـنـى فـكأنّـه لم يـلمعِ

---

(١) التاجر، محمد علي: عقد اللآل في تاريخ أوال، ص ٢٥- ٢٦.

(٢) القزويني، جودت: تاريخ المؤسسة الدينية الشيعية، الخزائن لإحياء التراث، ط٢، ٢٠١٤م، ص٢٧٥.

حتى آل الأمر في جزيرتنا، وهي دار المؤمنين، ومقرّ الصالحين إلى هجران العلم بالمرّة، واطّراحه، واستحقار العلماء واستئصالهم، وطيِّ صحف الفضلاء، وكتمان الكتب، ونبذها في هاوية الذهول، وانزواء أهاليها في زاوية الخمول؛ بسبب اشتعال نايرة الجور، وظهور الحور بعد الكور. نسأل الله أن يعيدها سيرتها الأولى، ويرجعها إلى ما هو أحرى وأولى، بتغيير حاكمها الجبّار العنيد، وتبديل واليها الشيطان المريد:

مـن قـال آمـينَ أبقـى اللهُ مهجَتَـهُ فـإنّ هـذا دعـاءٌ يشـمل البَـشَرا»[1]

وصف الماحوزيّ ـ في هذا النص ـ حال العلم والعلماء في عصره، فقد هجر البحرانيون العلم، ولم يعودوا يولونه المكانة التي كان آباؤهم يولونه إيّاها، كما تراجعت نظرة البحرانيين إلى العلماء، نتيجة هجرانهم العلم وابتعادهم عنه، وقد كان لذلك التراجع أثره البالغ في نفوس العلماء، وهو ما يمكن استنتاجه من استعمال الماحوزيّ لكلمة (**استحقار**) في وصف ما يشعر به، وقد كان من البدهي ـ وقد هُجِرَ العلم، وتراجع دور العلماء ـ أن تتراجع حركة التأليف والإنتاج العلمي، وأن يكون مصير تلك الكتب هو الكتمان، والنَّبذ في هاوية الذهول، حسب تعبير الماحوزي.

إنّ موقف الناس عامّة من العلماء له أثره البارز في الحركة العلمية في أيّ مكان؛ فهم الذين يشجعون العلماء، أو يثبّطونهم، ويمكن أن يكونوا مرآة تعكس دور العلماء في البلاد، ولا تحيط عامّة الناس بالعلماء إلا إذا كان لهم دورٌ بارزٌ في المجتمع، أمّا إذا سُحِبَ من أيديهم ذلك الدور فإنّ الناس ينفضّون عنهم،

(١)الماحوزي، الشيخ سليمان: أزهار الرياض، المجلد الثاني، الورقة ٢٩٢.

ولا يلتفتون إليهم، وهذا ما لحظه الشيخ محمد بن أحمد بن إبراهيم الدرازي، فقد وصف حال البحرين وعلماءها يومذاك، كما وصف حال الناس وعلاقتهم بالعلماء، في خاتمة كتابه (**مرآة الأخبار في أحكام الأسفار**)، الذي فرغ من تأليفه سنة (١١٦٢ه) فقال: «**وليكن هذا آخر ما أردنا إيراده في هذه الرسالة، ووفقنا الله لإمداده مع هذه العجالة، وأسعفنا به مع شدة السآمة والملالة، فجاءت بحمد الله سبحانه وافية بالمراد، جامعة لمسائل القصر إلا ما شذّ أو عن البال قد حاد، أو لم يرد به نصٌّ من السادة الأمجاد، مع ترادف الآفات، وتعاور العاهات في هذه الأوقات التي أشابت رؤوس الأطفال، وتزلزلت لأجلها شوامخ الجبال، وأبادت العالم في بلاد أوال، محل المحن الفظيعة والزلزال، فمنها ذهب العلم بذهاب حامليه، فقد باد جلُّ أهله وعامليه، بل لا تسمع أحدًا أنه راغبٌ فيه؛ لإذلال متعاطيه ومستعمليه، وحقارة عارفيه ودارسيه؛ فليس موصوفًا بالإحسان إلا من كان من عمّال السلطان، ولا محشومًا إلا من كان ذا سطوة ولسان، ترى الرجل يعدّ نفسه من أهل الإيمان، معروفا بالصلاح والإصلاح في كل مكان، وهو جاهل في دينه، ضعيف في يقينه، يعدُّ السؤال عمّا سيسأل عنه منقصةً عظيمة، والتفحّص عمّا هو مطالبٌ بتعلّمه مثلبة جسيمة، فيقضي عمره على هذه السيرة، إلى أن يموت على غير بصيرة، نسأله سبحانه حسن العاقبة، والسلامة من هذه الفتنة والطامة..**»[1]

لقد كرر الدرازيّ في هذا النصّ الشكوى من تراجع دور العلم والعلماء، وهو مضمون كلام الماحوزيّ السابق نفسه، كما استعمل الدرازيّ الألفاظ الحادّة نفسها في وصف الحال الذي آل إليه العلماء، فهم يشعرون بأنهم أذلّة محتقرون في

(١)العصفور، الشيخ محمد بن أحمد: مرآة الأخبار في أحكام الأسفار، الورقة الأخيرة.

مجتمعاتهم، وما ذلك إلا لابتعادهم عن مراكز النفوذ السياسي، التي بدأت تسيطر على مناحي الحياة كافة، كما أشار الدرازيّ ـ في هذا النص ـ إلى سببٍ آخر من أسباب تراجع دور العلم والعلماء، ذلك السبب الكامن في الغارات العسكرية التي تعرّضت لها البحرين، بعد ضعف الصفويين، والتي كان من نتائجها قتل عددٍ كبيرٍ من علماء البحرين، وتهجير الآخرين إلى شيراز، والعراق، والهند، وغيرها من البلدان.

ويبدو أنّ النزاعات الشخصية بين أولئك العلماء قد استحكمت، وطغت على المشهد العلمي والاجتماعي، ممّا أدّى إلى انزلاق البحث العلمي عن جادّته، ووقوعه في زاوية التراشق الشخصي، إذ يرمي العلماء بعضهم بعضًا بقصور الهمم عن بلوغ مراتب العلماء، والاتكاء على التقليد بدلا من إعمال الفكر والاجتهاد لاستنباط الأحكام، الأمر الذي لا يتمكن منه إلا من رسخت في العلم أقدامه، بل إننا وجدنا الشيخ سليمان الماحوزيّ يعدّ الإفصاح عن بعض الأحكام الشرعيّة في زمانه مشكلٌ، معلّلًا ذلك بالمستوى العلمي المتدني، فيقول في مقدمة رسالته (**فصل الخطاب، وكنه الصواب في نجاسة أهل الكتاب والنُّصّاب**): «**فهذه فوائد لطيفة، ونكات شريفة، حررت فيها مسألة نجاسة أهل الكتاب، وكشفت فيها نقاب الاحتجاج عن وجه الصواب... ولعمري إنّ الإفصاح عن هذين الحكمين، والتصريح بهذين السرّين في هذه الأعصار مشكلٌ جدًّا؛ لخمود نار الكمال، وظهور شقائق الباطل من أفواه عظماء الرجال**»[1]

(١) الماحوزي، الشيخ سليمان: فصل الخطاب وكنه الصواب، مخطوط يحتفظ الباحث بنسخة منه، الورقة الأولى.

ولعلّ ما سجّله الشيخ محمد الدرازي نفسه في الرسالة التي كتبها في بيان أفضلية التسبيح في الأخيرتين يعدّ خير مثال على ما تصوير الحال، التي كان عليها علماء ذلك العصر؛ فقد عاب على معاصريه التقليد، ومتابعة السلف، والإغضاء عن ملاحظة النصوص الواردة في المسألة؛ فقد «**غلب على أهل زماننا التقليد، فجعلوه تكليفهم والرأي السديد، وشدّدوا على مخالفيه أيّ تشديد، غامضون عمّا في النصوص، عائبون العمل بها بالخصوص... وإنّما الحجّة عندهم عمل السلف، وتأييده بمشايعة الخلف، فهل بهذا كلّف الله عباده وأولياءه، أم به تعبّدَ قبلُ رسُلَه وأنبياءه... فلا تغترّ بما ادّعاه بعض المعاصرين من الأدلّة المتكلّفة، ولا تعبأ بما فسّروا به بعض الأخبار بتفسيراتٍ مزيّفة، فما هي إلا كنسج العنكبوت، وإنّه كما قال سبحانه وتعالى لأوهنُ البيوت، وما كان حقّها إلا مقابلتها بالإعراض والسكوت، لولا وجوب إرشاد الجاهل، وتنبيه المكلّف الغافل.**»[1]

ويبدو أنّ العلاقة بين العلماء أنفسهم قد اتّخذت مسارًا تصادميًّا، لم يكن الهدف منه إلا إلغاء الآخر علميًّا، وإسقاطه اجتماعيًّا، فانتشرت المجادلات والصراعات البعيدة عن المنهج العلمي، ولقد وجدنا نصّين صريحين للشيخ علي بن الشيخ محمد المقابيّ، يصف فيهما تلك الحال التي آل إليها علماء البحرين يومذاك، فأما أول النصين فقد ساقه في كلماتٍ مختصرة في (**الرسالة الجهرية**)، وقد أوردنا ذلك النصّ تامًّا في كتابنا (**الحركة العلمية في البحرين**)[2]، ونحن نأخذ

(١)العصفور، الشيخ محمد بن أحمد: رسالة في أفضلية التسبيح في الأخيرتين، مخطوط يحتفظ الباحث بنسخة منه، الورقة الأولى.

(٢)انظر: الحركة العلمية في البحرين، ط١، ص ٥٨- ٦٠.

منه موضع الاستشهاد، إذ يقول ثَمَّ: «**قد جرت عادة العلماء، وخصوصًا أهل بلدنا، في إطلاق عَذَبَةِ ألسنتهم في الوقوع في من خالفهم في الحكم، والتشنيع عليه والسبّ، وخصوصًا إذا لم يكن قريبًا منهم، وينسبونه إلى الجهل، والفساد، والفسق، والتعصّب، وبعد ذلك يلتمسون منه الدعاء.**»[1]

وأمّا النص الثاني، فقد أسهبَ فيه الشيخ المقابيّ، موازِنًا فيه بين حال المجتمع العلمي في الأزمان السابقة، وما آل إليه ذلك المجتمع أيّام المقابيّ، فقدّم وصفًا دقيقًا لما كان عليه مجتمع العلماء في البحرين يومذاك، الأمر الذي انعكس سلبًا على المجتمع البحرانيّ كلّه، وقد رأينا نقل النصّ كاملًا، على ما فيه من طول، ثمّ نعلّق عليه ببعض التعليقات؛ لما فيه من إشارات اجتماعية خطيرة، وهو نصٌّ لم ينقله قبلنا أحدٌ ـ في حدود ما نعلم ـ ونحن ننقله من مخطوط (**رسالة في التراجيح**) للشيخ علي المقابي، وهي رسالة لم تمتدّ إليها يد المحققين بعد، يقول فيها:

«**قد جرت عادة العلماء، وخصوصًا أهل البحرين بلدنا، من الوقوع في من خالفهم، وخصوصًا إذا كان مشهورًا بالعلم، مشارًا إليه؛ حرصًا على تنقيصه وتنزيله عن مرتبته؛ ليلزم من ذلك بيان فضل المعترض، وارتفاع درجته، كما وجدناه في الكتب مسطورًا، وفي المخاطبات مذكورًا. ولقد كان في الصدر الأول حرصهم على معرفة الحقّ والتديّن به، ولو ظهر على لسان أقلّ الناس فضلًا، وأخمدهم ذكرًا، معترفين بذلك، حامدينه على كونه سببًا في إيصال المحبوب إليهم؛ ولذا تراهم ـ كما أنبأت عنه كتب التواريخ، بل بعض الأحاديث ـ إذا سئل واحدهم عن مسألة ـ وإنْ كانت محققةً عنده ـ وكان بحضرته من يتعاطى العلم،**

(١) المقابيّ، الشيخ علي: رسالة في الجهر والإخفات، مخطوط يحتفظ الباحث بنسخة منه، الورقة ١٣.

وإن لم يبلغ أدنى درجة من درجاته، أحال السائل عليه؛ إظهارًا لفضله، وإيثارًا له بالحسنة، وإكرامًا له، واستماعًا لما يظهر منه، أو لعلّه مخالفٌ لمعتقده، وحجته أظهر من حجته، فيستفيد علمًا بدون سؤال منه، حتى وجدتُ في بعض الكتب المعتبرة أنّه حضر سؤالٌ في مجلس واحد، وكان فيه ثلاث مئة فقيه، فمازال يُحيلُ بعضٌ على بعضٍ حتى دارت الإحالة على المسئول أوّلًا.

ولمّا كان الناس ـ في هذا الزمان ـ حرصهم على إظهار الفضيلة، ورغبتهم في المحافظة على تحصيل المراتب الدنيوية من المال، والمنال، والتسلّط، والجاه، ونحوها، دأبهم المناظرة، والخوض في تغليط العلماء، وبيان عدم قوتهم على اكتساب المطالب؛ لتسلم لهم تلك الرئاسة الفاسدة، واللذة العاطلة الكاسدة، فإذا سُئلَ أحدهم عن المسألة، وكان في المجلس عالمٌ غيره، تسابقا في الجواب، وتخاصما في الجدال والخطاب، بل ربما خرجا إلى الاضطراب، والقول بما ليس بحقٍّ ولا صواب، بل إلى شتمٍ وسباب، وضربٍ وضِراب.

ترى لكلّ واحدٍ من العالَمِين في البلدة الواحدة أصحابًا وإخوانًا، وتلامذة ومريدين وخلانًا، هذا يقول: ليس الفاضل إلا فلان، وذا يقول: بل فلان علامة الدوران. هذا يقول: عيوب شيخك كذا وكذا، وذا يقول: بل مساوئ أستاذك كذا وكذا، فيقع بين الفريقين من العناد ما يخرجان به عن جادّة الرشاد، إلى مهامه الضلالة والفساد؛ ولذلك لا تسمع في تلك المجالس إلا التفسيق والتوثيق، والتفضيل والتضليل، ولا وجه لذلك إلا التنافس على تلك المناقب، والتكالب على تلك المراتب، ورضا المشايخ بفعل الجهال، وعدم العمل بما ورد عن الآل، صلوات الله عليهم أجمعين.

ويحنا، ألم نسمع ما ورد في الكتاب المبين؟ ألم نتنبّه لما دلّت عليه أخبار الأئمة الطاهرين؟ ألم نلتفت لقول الصادق عليه السلام: طلبة العلم ثلاثة، فاعرفوهم بأعيانهم وصفاتهم: صنفٌ يطلبه للحِيَل والمراء، وصنف يطلبه للاستطالة والختل، وصنفٌ يطلبه للفقه والعقل.

فصاحب الجهل والمراء مؤذٍ مراءٍ، معترض للمقال في أندية الرجال، بتذاكر العلم، وصفة الحلم، وقد تسربل بالخشوع، وتخلى من الورع، فدقَّ الله ـ من هذا ـ خيشومه، وقطع منه حيزومه.

وصاحب الاستطالة والختل ذو خبٍّ ومَلَق، يستطيل على مثله من أشباهه، ويتواضع للأغنياء من دونه، فهو لحلوائهم هاضم، ولدينه حاطم، فأعمى الله على هذا خبره، وقطع من آثار العلماء أثره.

وصاحب الفقه والعقل ذو كآبةٍ وحزن وسهر، قد تحنّك في برنسه، وقام الليل في حندسه، يعمل ويخشى وَجِلًا، داعيًا، مشفقًا، مقبِلًا على شأنه، عارفًا بأهل زمانه، مستوحشًا من أوثق إخوانه؛ فشدَّ اللهُ من هذا أركانه، وأعطاه يوم القيامة أمانه....

وكلّ ذلك لا ينبّهنا، ولا يخرجنا عن أودية غرورنا، فما هذه والله إلا محنة هائلة، ونقمة شاملة، إن لم يتفضل الله بتوبة نصوح، يتداركنا بها، ويجيرنا وينقذنا من مهامه أمانينا وآمالنا، إنه القادر على ما يشاء، وبيده مقادير الأشياء، وإلا فقد فسد الزمان، وجارت العدوان، وعُدِمَ المِعوان، والله المستعان.

لقد أصبحنا في زمان، لا يسلم دين أحدٍ له، إلا لمن أغلق بابَه، وأرخى حجابَه، واعتزل الناسَ أجمعين، ولزم بيته في كلّ وقتٍ وحين، زمانٍ القابضُ به على دينه كالقابض على الجمر بيمينه، والحمد لله ربّ العالمين، بل الحمد لله على كلّ حال،

وعليه المعوَّل، وإليه المشتكَى في المبدأ والمآل.

أقول قولي هذا، ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ وأسأله أن يوفقني وإخواني لما يحبُّ ويرضى، ويسلك بي وبهم سبيل الرُّشد والرِّضى، ويجعل مستقبلَ أمورنا جميعًا خيرًا ممّا مضى. آمين.

وهذا الكلام منّا وقع كنفثة مصدور خَرَجَتْ، أو شقشقة موجوعٍ هدرتْ ثمّ قَرَّتْ، نسأله أن يجعل عاقبة أمورنا أجمعين إلى خير وعافيةٍ في الدنيا والدين، ويتوب علينا إنه جوادٌ كريم، وذو فضلٍ عميم.

هذا ولا يتوهم متوهِّمٌ أنّ هذا الكلام طعنٌ على ذلك الشيخ الفاضل، تغمده الله بغفرانه، وأسكنه بحبوحة جنانه، حيث إنّه وقع بعد كلامٍ في اعتراضه على بعض الفضلاء، لا ـ والله العظيم ـ ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ ما قصدته بذلك، ولا غيره ممّن لم أدرك زمانه، ولم أكُ في أوانِه، ولكن حيث إنّ في القلب كلامًا، لا تداويه الأطبّاء الأعلام، من أهل هذا الدهر المتعوس، والعالم المنكوس، الذي رجعت فيه الناسُ عن الدين القهقرى، بعد أن قدّموا فيه رجلًا، وأخّروا أخرى، سَبَقَ القلمُ القلبَ بإخراج تلك الكلمات، الغير المناسبِ إيرادها في هذه المقامات، ومع ذلك، فأنا أستغفر الله ممّا فَرَطَ مني، وأسأله أن يتوبَ عليَّ ويعفوَ عني، وإنّ ما لي من حقوقٍ عند الناس من غيبةٍ، أو نميمةٍ، أو قولٍ فيَّ بالأذى، فهم في حِلٍّ ممّا قالوه، وفي سعةٍ ممّا ذكروه، أو فعلوه، ويا قاتل الله الشيطانَ، كيفَ تسلّط على عباد الله المنّان، وأتى كلّ واحدٍ من بابٍ لا يخالفه فيه.»[1]

(١) المقابيّ، الشيخ علي بن محمد: رسالة في الترجيح بين الأخبار، مخطوط يحتفظ الباحث بنسخة منه، الورقة ١٠٢ – ١٠٤.

يقدّم هذا النصّ الصريح تصوّرًا عامًّا للحالة الاجتماعية التي كان يعيشها **(علماء)** ذلك الزمان من وجهة نظر المقابيّ، تلك النظرة التي يمكن إيجازها في النقاط الآتية:

١ـ تخلّي **(علماء)** ذلك الزمان عن تحصيل العلوم للتحصيل نفسه، وانشغالهم بالتنافس فيما بينهم، اعتناءً بالأمور الشخصية، وتكالبًا عليها، كتكالبهم على تحصيل المال، والمنال، والتسلّط، والجاه، وعدم الاعتناء بالأمور العلمية، التي كانت موضع اهتمام من سبقهم من العلماء.

٢ـ حبّ أولئك **(العلماء)** للتصدّر والوجاهة الاجتماعية حملهم على الانشغال بالجدل العقيم، الذي لايفضي إلى معرفةٍ حقيقية، يكون بإمكانها السموّ بالبحث العلمي، بل كان الهدف من ذلك الجدال هو إسقاط بعضهم بعضًا في أعين الناس؛ كي يعلو شأن الغالب، ويأفل نجم المغلوب.

والظاهر أنّ محاولات إسقاط الآخر، وعدم الإذعان إلى الحقّ ـ إنْ ظهر ـ كان فاشيًا في ذلك الزمان، وهو ما حمل الشيخ عليًّا المقابيّ على تكراره أكثر من مرة، في رسائله المختلفة، فقد وجدناه في **(رسالة الجهر والإخفات)** يناقش القائلين بوجوب الجهر في أخيرتي الظهرين والعشاءين، ويردّ ما استندوا عليه من رواية، ثمّ يذكر أنه سمع أنّ أحد المعترضين عليه «**قال: قد وجدتُ ألف حديثٍ خاصيٍّ، يدلّ على جهر الإمام في أخيرتيه**» فما كان من الشيخ المقابيّ إلا أن قال:« **فهلا أتى لنا بخبرٍ غير هذا الموثق، المتنازع فيه، دالٍّ على مطلوبه؛ لننظر فيه، ونعرضه على هذه الأخبار، فإنْ رجح عليها بما يقتضيه كلام الإمام**عليه السلام**، وضعناه على رؤوسنا، وجعلناه وِردًا في ليلنا ونهارنا.**»

واستطرد المقابيّ منكرًا ما آل إليه أمر هذه الجماعة، أعني (العلماء) في ذلك الزمان، وموازنًا بين فعل هؤلاء، وفعل من سبقهم من العلماء، فقال: «**وأما مجرد الدعاوى، مقرونًا بالتهوّر، والغَلَبة، وشدّة الخصومة ـ كما هو المعمول في بلدنا ـ فأمورٌ توجب التباعد، والانفراد.**

ولقد كان الناس في الزمن الأول حرصهم على اتّباع الحق، والتسليم لأهله ـ وإن كان من أدنى القوم ـ لمحافظتهم على الدين، والتديّن به، وفي هذا الزمان حرصهم على التغلب، وإفحام الخصم وإلزامه، خصوصًا في المجالس المشهورة، مع اعتقاد أنّ الحق مع خصمهم؛ محافظةً على إبقاء سلطان الجاه، الذي هو ملك القلوب؛ إذ به يُتَوَصَّل إلى المطالب الدنيوية، كما وجدناه في بلدنا، بل لم نجد غيره.»(١)

وليست قضية الجدل العقيم بجديدة حادثة في زمن المقابيّ، بل إننا وجدنا الشيخ سليمان الماحوزي يشكو منها، ويشير إليها بصراحة، فيقدمها في قالب نصحٍ وإرشاد، فيقول: «**فالواجب على المتجادلين في مسألةٍ من المسائل الشرعية أن يخلعا عنهما رتبة العناد والعصبية؛ فإنهما أصل المصائب الدينية، ورأس الهلكات الرديّة، ويجب عليهما أن يكون مرمى قصدهما تحقيق الحقّ المبين، لا تصوير الباطل بصورة اليقين، ويجب أن تكون منزلتهما في ذلك كمنزلة من طلب كنزًا مدفونًا؛ فإنّ الواجب على طالبه الفحص عنه، والنبش عن جميع الجهات المحتملة لكونه فيها، لا مدّ لسان المجاراة والمجادلة، وبسط بساط المغالبة والمسابة...**

فلو أنّ جميع المحصّلين عمدوا ـ أولًا ـ إلى تحقيق الأصول، واستفرغوا الوسع في تمهيدها، وبذلوا الجهد في تجديد مبانيها وتشييدها، وكان مرمى قصدهم هو

(١) الشيخ علي المقابي: رسالة الجهر والإخفات، الورقة ٤٩- ٥٠.

وجه الله سبحانه، وإرادة رضاه، وأخلصوا النية في ذلك، ولم تسرع نفوسهم إلى الشوائب المكدّرة للإخلاص، وجاهدوا في ذلك حقّ المجاهدة لهداهم الله سبحانه وتعالى إلى دينه القويم، ومنهاجه المستقيم؛ لأنه سبحانه يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾.

ولو أنّ الجهال صمتوا وكفّوا عن التكلّم في الفروع، لم يكد يقع خلافٌ في فروع الشريعة، ولا في أصولها»[1].

٣ـ إنتاج الجدل العقيم حالة من التشنّج والقطيعة بين (**العلماء**) أنفسهم، فتسافلت لغة النقاش، وحلّت محلها ألفاظ الشتائم والسباب، وربّما تطوّر الموقف إلى استعمال العنف، الذي عبّر عنه المقابيّ بالضرب والضّراب.

٤ـ إحاطة أولئك (**العلماء**) أنفسَهم بالحواشي والأتباع، وانتقال الصراع بين (**العالمين**) إلى تلك الحواشي؛ إذ تنشغل كلّ حاشية بإبراز مثالب (**عالِم**) الحاشية الأخرى، وتعديد نقائصه، الأمر الذي جعل المجتمع كلّه مقسَّمًا، يضرب بعضه بعضًا.

ويبدو أنّ إطلاق الألسنة، والنيل من (**العلماء**) كان صفة مهيمنة على ذلك العصر، وقد اكتوى بها كثيرٌ من الأعلام، فها هو ذا الشيخ عبد الله السماهيجي (**١١٣٥هـ**) يبعث برسالةٍ إلى زميله الشيخ أحمد العصفور، يطلب فيها تدخّل الشيخ أحمد لإسكات الطاعنين فيه، يقول السماهيجيّ في تلك الرسالة: «**فإنْ كففتم عنّا ألسنة الطاعنين، ورَدَدْتُم عنّا ألسنة اللاعنين، فذلك المؤمَّل منكم، والمعهود عنكم**[2]**، وإن خذلتم مع جملة الخاذلين، وتركتمونا غرضًا لسهام**

(١) الماحوزي، فصل الخطاب، الورقة ٢٤- ٢٥.

(٢) في الكتاب المطبوع: والمعدود عنكم، والذي أثبتناه هو الصواب.

القاذفين[1]، ومضغةً لألسنة القائلين، وزِلتم عن اعتقادكم السابق فينا، وأعرضتم عن إحسانكم إلينا، فنحن لا نعارضكم إلا بالصفاء، ولا نقابلكم بالإعراض والجفاء، وعندنا من العلم القاطع، والبرهان الساطع أنكم لا تعاملونا بذلك، ولا تسلكون بنا في هذه المسالك، التي توجب المهالك؛ لأنكم لا تعتقدون ـ كما أفدتمونا على تقدير الخلاف، كما ظهر للناس ـ إلا الصحة في الطلاق، وكذا العقد على تقديرنا الخلوة، وإن كان قد شاع بين الناس الجهّال أنكم تنكرون على مرتكب هذا الأمر، وتعتقدون عدم الصحة في كلا الأمرين، فإنه لا شبهة عندنا في بطلان ما ينقله النمّامون الملاقون، فاحذروهم ـ كما بلّغكم الله ـ أنّى يؤفكون؛ فإنهم يريدون تفرقة الكلمة، وشقَّ عصا الأمّة.»[2]

والعجيب أنّ الشيخ أحمد العصفور قد أعلن بوضوح عدم قدرته على إسكات الناس، وردعهم عن الطعن في الشيخ أو في غيره، وحاول تسليته بما قيل في المعصومين، الذين هم أجلّ قدرًا، وأرفع شأنًا من كلّ الناس، فقال: «**ولكن ـ يا مولانا ـ كَفُّ ألسنة الأنام، سيّما أهل المطالب والعوام، غيرُ مقدورٍ لأحدٍ من الأعلام، وقد قيل في أهل العصمة من الأنام ما قيل من شنيع الكلام، بل قيل فيما هو فوق هذا المقام، فكيف يسمع لمثلي كفّ ألسنة العوام، مع أنّ هذه طريقتهم المذمومة في جميع الأيام.**»[3]

وأعجب من ذلك أنّ الشيخ العصفور شكا من الأمر نفسه إلى الشيخ

(١)في الكتاب المطبوع: وتركتمونا عرضا لسهام القاذلين. والصواب ما أثبتناه؛ إذ لا معنى للجملة التي في المطبوع!

(٢)المكباس، محمد عيسى: مراسلات علماء البحرين، المطبعة العلمية، قم المقدسة، ط ١، ص ٤٠.

(٣)مراسلات علماء البحرين، ص ١٧ – ١٨.

السماهيجي، فإنّه قد ابتُلي بمن أطلق فيه القول، فسبّه وشتمه، وقال فيه ما قال شعرًا ونثرًا، يقول العصفور في الرّسالة نفسها: «**على أنّ المحبّ قد صار عليه من الشناع ما طبّق جميع الأصقاع، من السباب والشتم وفظيع الكلام، ما هو أشدّ من الأمراض والأسقام من سفهاء (بني جمرة)، وقد سَمِعَت أذُنُكَ وغيرك مرّة بعد مرّة، وكرّة بعد كرّة، ونُقِلت لك، كما نُقِلَت لغيرك أخبارهم، واطّلعتَ على أفعالهم، وتصانيف أشعارهم بحيث لا يمكن، ولا يسوغ إنكاره من أحد؛ لعظم انتشاره واشتهاره.**

وها هم إلى الآن يتلون صحف أورادهم بالسباب في جميع أوقاتهم وأيامهم، ومقدّمهم في العتب والسباب من هو لك أعظم الأصحاب، وأقدم الكتّاب، وقد أمحضتَه النصحَ والوداد، وبلّغته في الصداقة والخلّة فوق المراد، مع ما علمتَ من أقوال الكُمّل من الرجال، وغوابط أهل العلم والكمال أنّ صديق العدوّ أحد الأعداء، كما أنّ عدوّ العدوّ أحد الأصدقاء، أراني لم تعتريني فيك المؤاخذة، ولا عتبتُ عليك بعدم المساعدة، بل أغضيتُ طرفي عن ذلك، وحملتك على أحسن المسالك؛ لعلمي بحسن سيرتك، وصفاء سريرتك.»[1]

ويبدو أنّ مهاجمة العلماء، وعدم التسليم لهم بكلّ ما يرون سمةٌ من سمات المجتمع البحراني، قبل القرن الثاني عشر وبعده، فقد وجدنا في مخطوط خطب الشيخ أحمد بن عبد السلام الجدحفصي البحراني (بعد ١٠٣٣هـ) ما يشير إلى ذلك، فقد هاجم الشيخ في إحدى خطبه المصلين هجومًا حادًّا، متهمًا إياهم بإثارة الأحقاد، والاستهزاء بخطبه ومواعظه، يقول: «**عباد الله، لقد أنذرتكم صاعقة**

(١) مراسلات علماء البحرين، ص ١٨.

الخراب، وضراعة خدودكم على صفحات التراب... فنبذتم تلك الإنذارات ظِهريًّا، واتّخذتم تلك التخويفات سخريًّا، ولم تكونوا من الذين إذا تُلِيَت عليهم آيات الرحمن خرّوا سُجّدًا وبُكيًّا، وانقلبتم عنّا بإثارة الأحقاد، وما كان ربُّكَ نسيًّا، وجعلتم عِظاتي بينكم سخريةً واستهزاءً، وزعمتم أنها أُنشئت مثالبَ وهجاءً، وأولتموها بالتأويلات الباطلة، وحملتموها على المحامل العاطلة، حبًّا منكم لإثارة المفاسد، وركونًا منكم لنقل القول الفاسد.

وما مقامي منكم مقام الساخر، ولا قيامي في إنذاركم قيام الشاعر، فتحملون مقامات العِظات على ما يهيج به الفتن، وتثير به ثوائر الإحن، وتوقعون به العداوة والبغضاء، وتثيرون الحقود والشحناء. تنتفعون من النصائح بما يريكم[1]، وتأخذون من العظات القدر الذي يوثقكم، وأنا لتراب الأقدام الطاهرة من المؤمنين، ومداد نعال أرجل الصالحين.

وأما أنتم ـ معاشر السُّعاة ـ فقد دخلتم في موجب التهديد، وارتجت عليكم أبواب الإنذار والوعيد.»[2]

٥ـ كما يقدّم نصّ المقابيّ المتقدم تبرّم الشيخ من المجتمع البحرانيّ يومذاك؛ إذ رأى اعتزال الناس خيرًا من مخالطتهم، وما ذلك إلا خوفًا من ضياع دينه إن هو خالطهم، فالغيبة، والنميمة، والطعن في العلماء أمورٌ دائرة مشهورة في ذلك المجتمع؛ وهي أمورٌ اكتوى بنارها شخصيًّا، ولم يسلم منها؛ لذا أعلن عفوه وصفحه عمّن اغتابه أو قال فيه بالأذى.

---

(١) كذا في المخطوط.

(٢) الجدحفصي، الشيخ أحمد بن عبد السلام: مجموع خطب الشيخ أحمد بن عبد السلام، مخطوط يحتفظ الباحث بنسخة منه، الورقة ٢٢- ٢٣.

٦ـ وآخر ما نودّ لفت الأنظار إليه، ممّا أعطانا إيّاه نصّ المقابيّ، هو توثيق نصٍّ ذكره الشيخ علي البلادي في كتابه (**أنوار البدرين**)؛ إذ نقل فيه عن الشيخ علي المقابيّ أنّ «**فاتحةً أقيمت لبعض أشخاص البحرين، في مسجدها المسمّى بالمشهد ذي المنارتين، فاتفق فيها حضور ثلاث مئةٍ أو يزيدون من العلماء الأفاضل، في وقتٍ من الأوقات، فأتى رجلٌ يسأل عن مسألةٍ مهمّة في دينه، فقصد المشار إليه من بينهم، فسأله عنها، فأحاله على الذي عن يمينه، فسأله فأحاله على الذي إلى جانبه، وهكذا لم يزل يحيل كلّ واحدٍ على الآخر، حتى أتى على آخر ذلك الصفّ، ثمّ أحالوه على الأول، أي المسئول أولًا، فأحاله على الذي كان على يساره، فسأله فأحاله على الذي بجانبه، وهكذا حتى أتى على آخرهم، فأحالوه على الأول، فرجع إليه، وأجابه عن مسألته. انتهى.**»[1]

وجليٌّ أنّ صاحب الأنوار قد نقل القصة بما يتذكر منها، فزاد فيها كثيرًا؛ إذ ليس في الأصل ـ أعني نصّ المقابيّ ـ ذكرٌ للمشهد ذي المنارتين، ولا غيره من الأمكنة، ولا يظهر من النصّ ارتباط القصّة أصلًا بالبحرين، وليس فيه ـ كذلك ـ تفاصيل السؤال، والانتقال به يمنةً ويسرةً، حتى عاد إلى المسئول الأوّل.

ويبدو أنّ تلك الطبقة تصدّرت المشهد العلميّ، وتبوّأت المناصب العالية في البلاد، فأسند إلى بعضهم القضاء، ولم يكونوا أهلًا له، وهذا ما ألمح إليه الشيخ حسين العصفور (١٢١٦هـ) في كتاب القضاء والشهادات من كتابه الكبير (**الأنوار اللوامع**)، فقد عدّد ما يشترط في القاضي، فذكر شرط (**العدالة**)، ثمّ بيّن

(١) البلادي، الشيخ علي: أنوار البدرين في تراجم علماء القطيف والأحساء والبحرين، تصحيح محمد علي الطبسي، ط ١٩٨٦، ص ٥٠- ٥١.

معناها، وذكر تشديد صاحب الحدائق عليها، وإضافته الورع والتقوى في المفتي والقاضي، فقال الشيخ حسين معلّقًا: إنّ «**اعتبارها في القضاة والفقهاء ممّا يضيّق على الناس أمورهم، وتعطيل أحكامهم**[1]**؛ لانحسار جلِّ الناس عنها، سيّما في هذا الزمان الجائر، الذي عزّت فيه العلماء والعدالة، واشتُهِرَت فيه المناكر والكبائر، ووجب أن يُتَّقَى من أهله، سيّما الجالسين هذه المجالس والمراتب، فليس مقامهم إلا مقام الجاهل المحارب، فتجب التقية منه [أعظم من]**[2] **التقية من الناصب.**»[3]

وحسبك أن يلغي مثل الشيخ حسين شرط العدالة! فلو اشترطها لما وُجِدَ أحدٌ تنطبق عليه، ولتعطّلت مصالح الناس، وضاقت بهم الأمور! وحسبك أن يصف ـ وهو فقيه البحرين دون منازع في عصره ـ من يتصدرون للقضاء والإفتاء بالجهلة المحاربين! وحسبهم مذمّةً أن يفتي الشيخ حسين بوجوب التقية منهم، وما كان ذلك إلا لما رآه منهم، ممّا لا يمكن أن يقبل في واحدٍ من المنتسبين إلى سلك العلماء أو القضاة.

لقد ذكرنا ـ فيما سبق ـ بعضًا من العوامل الداخلية، التي أدّت إلى تراجع دور العلماء في المجتمع البحرانيّ، كالتسابق على الأمور الشخصية، والخوض في المجادلات العقيمة، وترك التبحر في العلوم، وغيرها، غير أنّ ذلك التراجع لا يمكن عزوه إلى تلك العوامل الداخلية حسبُ، بل إنّ العوامل الخارجية، التي مرّت بها البحرين، كان لها دورٌ في تسريع إنهاء دور العلماء في الساحة الداخلية،

(١)كذا في المطبوع، وأظنّ الأقرب أن تكون الجملة: ويعطّل أحكامهم.

(٢)ما بين المعقوفين زيادة من عندنا؛ لاستقامة الكلام.

(٣)العصفور، الشيخ حسين: الأنوار اللوامع في شرح مفاتيح الشرائع، تحقيق الميرزا محسن العصفور، إصدار مجمع البحوث العلمية، البحرين، لا.ط، لا.ت، ج ١٤، ص ١١.

تلك العوامل المتمثلة في ما أصاب العلماء جرّاء الغارات المختلفة، التي تعرّضت إليها البحرين؛ إذ صارت ساحةً يتقاتل فيها الطامعون في خيراتها.

وقد دشّن غزو اليعاربة البحرينَ سنة ١١٣٠هـ مرحلةً جديدة في تاريخ البحرين بعامّة، وتاريخ علمائها وأعيانها بخاصّة؛ فقد كان أولئك في دائرة الاستهداف الأولى، فقُتِلَ من قُتِل، وشُرِّد من شُرِّد، وأُتلِفت مكتباتهم بالإحراق والمصادرة، إلى غير ذلك من صور الاستهداف والتنكيل، وهو أمرٌ دوّنه أولئك العلماء، وحفظوا لنا بعضًا من صوره ومآسيه، موضحين أثره السلبيّ في نفوسهم، وممّن نقلوا تلك الصورة الشيخ عبد الله السماهيجي (١١٣٥هـ) الذي شكا في آخر رسالته الموسومة بـ(ذخيرة العباد في تعريب زاد المعاد) ممّا عانته البحرين يومئذٍ، فقال في بكائية مؤثرة: إنّه أنهى كتابة الرسالة «**بظهر الأربعاء، خامس جمادى الأخرى، في العام الحادي والثلاثين والمائة والألف من هجرة سيد المرسلين، وخاتم النبيين، صلّى الله عليه وآله الميامين أجمعين، في بلدة بهبهان، صينت عن حوادث الزمان، وهو العام الذي قلّت فيه الإخوان، وتفاقمت فيه الأشجان، وذَلَّ فيه أهل الإيمان، وتشتتوا عن الأوطان في كلّ مكان، وضُرِبَ عليهم الذّلُّ والهوان، وفقدتُ فيه والدتي وجماعةً من الإخوان، من العلماء والأعيان، ممّن يُشار إليهم بالبنان، فإلى الله المشتكى وهو المستعان، وهو حسبي ونعم الوكيل، نعم المولى ونعم النصير.**»[1]

لقد أوجز السماهيجيّ ما حلّ بالبحرين من محنٍ ومآسٍ، تمثّلت في إذلال

(١)السماهيجيّ، الشيخ عبد الله: ذخيرة العباد في تعريب زاد المعاد، الورقة الأخيرة من مخطوط يحتفظ الباحث بنسخة منه.

سكان البحرين، وتشريدهم عن الأوطان، وقتل العلماء فيها، وقد تولّى الشيخ ياسين البلادي (بعد ١١٤٧هـ) وصف رحيله عن البحرين، بعد إصابته بالجراحات، ونجاته من الموت، فقال في كتابه (**الروضة العلية في شرح الألفية**): «**أمّا بعد، فالعبد المسكين، ياسين بن صلاح الدين ـ عفا الله عنهما، آمين ـ يقول: إنّ ربي، وله المنّة عليَّ، حيث نجّاني من غمرات الأهوال والمصائب؛ لأني ممّن كنتُ في قلب الهلكة والحَيْن، وتلك الطامّة الواقعة على أهل البحرين، التي لم يقع مثلها في الأزمان، كلا ولا، ولم تكن غير كربلا، فيا لها من مصيبة قد شربتها، ومن رزيّة قد تجرعتها، ثمّ إني لم أتحسّر على ما فات عليَّ من المال، ولا ما تلف عليَّ من الحال، بل أتذكّر ضربَ الرماح المريقةِ لدمي، وملاطمة السيوف المبرية لأعضائي وأعظمي، فلم أزل أسلّي النفسَ عن ذكرها، وأشغلها بالتسلّي عن غيرها، وكيف تسلو وقد ترامتني بعدها أيدي الغربات، وتعاورتني أيدي الكربات، حتى ألقتني نون الآونة والأقدار، وقذفتني تحت يقطين الدار، دار العلم والكمال شيراز، صانها الله من الزلزال، خاليًا من الطارف والتلاد، ليس معي أصلٌ أطالعه، ولا كتابٌ أراجعه.**»[1]

ولقد كرّر الشيخ ياسين نفسه وصف ما صنع اليعاربة بالبحرين وأهلها، مشيرًا إلى كثرة القتلى من العلماء، وعدم وجود من يواري أجسادهم، حتى عدت الكلاب عليها، فقال في مقدمة رسالته الموسومة بـ(**القول السديد**): «**فإنه قد**

(١)التاجر، محمد علي: منتظم الدرين في تراجم علماء وأدباء الأحساء والقطيف والبحرين، تحقيق ضياء آل سنبل، مؤسسة طيبة لإحياء التراث، بيروت، ط١، ١٤٣٠ه، ج٣، ص ٣٨٩- ٣٩٠، نقلا عن الروضة العلية للبلادي.

جرّد الزمان عليهم صارم العدوان، وأفنى من كان فيها من السكان، وأضرم نار غاراته عليها، فشتت ما بقي من أهلها أيادي سبأ، بعد أن ملئت أزقتها من القتلى والجيف، من أولئك الأعلام، والسادات، وأولي الشرف، فقبورهم بطون الكلاب الضارية».

ومع شدّة هذا الهجوم وعنفه على سكان البحرين، إلا أنّ الهجوم اليعربي الثاني، سنة ١١٥١ه/ ١٧٣٤م فاقه في الشدّة والتدمير؛ فقد أراد سلطان مسقط سيف بن سلطان الانتقام من أهل البحرين «الذين تجاسروا على القيام في وجه عساكره، وطردهم لهم منها»[١]، فقاد حملةً على البحرين، واحتلّها سنة ١١٥١ه، «**وأمر بالقتل والنهب العام مدّة ستة أيام، كاد في أثنائها أن يجعل البحرين خاليةً على عروشها، وقد انتقم من الأهالي شرّ انتقام، وأذاقهم من العذاب والاضطهاد أشكالا وألوان (كذا)، وقتل كثير (كذا) من مشايخهم، وعلمائهم، وكبرائهم، ودمّر البلاد أشدَّ تدمير.**»[٢]

لم تستقر الأمور في البحرين، فقد دخلت في دوامة الحروب المتوالية، تلك الحروب التي كانت تنعكس سلبًا على أهل البحرين، فلا يجد من تُكتَب له النجاة من الموت سوى الهجرة، والابتعاد حفاظًا على نفسه وعياله، أمّا أولئك الذين يصرّون على البقاء في البلاد فإنّما يعيشون عيشة المترقّب الخائف، وهو ما وجدناه عند الشيخ المقابيّ، الذي أنهى تأليف الجزء الأول من تفسيره (**صفوة الصافي والبرهان**) سنة ١١٦٥هـ، فقال في خاتمته: «**تمّ الجزء الأول من كتاب صفوة**

(١)ناصر الخيري: قلائد النحرين، ص ٢٠٥.
(٢)المصدر نفسه، والصفحة نفسها.

الصافي والبرهان، ونخبة البيضاوي ومجمع البيان على يد مؤلفه الشيخ محمد بن الشيخ علي بن عبد النبي بن محمد بن سليمان المقابيّ البحرانيّ، غفر الله له، ولوالديه، ولإخوانه المؤمنين والمؤمنات أجمعين، بمنتصف الليلة التاسعة والعشرين من شهر ربيع المولود، سنة الخامسة والستين والمائة والألف، على مهاجرها أفضل التحيّات والتسليم، وذلك في أيّام خوف الهولة والعتوب، وتألّب العربان من جميع البلدان على أهل البحرين، نسأله السلامة من الأشرار، وكيد الفجّار.»[1]

كما وجدنا الشيخ عليًّا المقابيّ، ينهي رسالته المعروفة بالترجيحية، بعد عشرين سنة من إنهاء أبيه تفسيره صفوة الصافي، فيقول في خاتمتها: «**حرّره على توزّع البال، وكثرة الاشتغال، وتراكم الأهوال في جزيرة أوال، حُرِسَت بمحمدٍ والآل، بثالث ربيع الأول، سنة الرابعة والثمانين والمائة والألف من الهجرة النبوية.**»[2]

تلك كانت جولة سريعة، حاولنا فيها تلمّس العلاقات الاجتماعية التي كان علماء البحرين يعيشونها في القرن الثاني عشر الهجري، والعوامل التي أدّت إلى ضعف مكانتهم الاجتماعية، وغيرها، والله نسأل أن يوفقنا لما فيه الخير والصلاح.

والحمد لله ربّ العالمين

(١) صفوة الصافي والبرهان، مخطوط يحتفظ الباحث بنسخة منه.

(٢)المقابيّ، الشيخ علي بن الشيخ محمد: الرسالة الترجيحية، مخطوط يحتفظ الباحث بنسخة منه، الورقة الأخيرة.

المصادر والمراجع:

١ـ البلادي، الشيخ علي: أنوار البدرين في تراجم علماء القطيف والأحساء والبحرين، تصحيح محمد علي الطبسي، ط ١٩٨٦.
٢ـ التاجر، محمد علي: عقد اللآل في تاريخ أوال، تقديم إبراهيم بشمي، مؤسسة الأيام للصحافة والطباعة والنشر، ط١، ١٩٩٤م.
٣ـ التاجر، محمد علي: منتظم الدرين في تراجم علماء وأدباء الأحساء والقطيف والبحرين، تحقيق ضياء آل سنبل، مؤسسة طيبة لإحياء التراث، بيروت، ط١، ١٤٣٠هـ.
٤ـ الجدحفصي، الشيخ أحمد بن عبد السلام: مجموع خطب الشيخ أحمد بن عبد السلام، مخطوط يحتفظ الباحث بنسخة منه.
٥ـ الخيري، ناصر بن جوهر: قلائد النحرين في تاريخ البحرين، تقديم ودراسة عبد الرحمن الشقير، مؤسسة الأيام للنشر، مملكة البحرين، ٢٠٠٣م.
٦ـ السماهيجيّ، الشيخ عبد الله: ذخيرة العباد في تعريب زاد المعاد، الورقة الأخيرة من مخطوط يحتفظ الباحث بنسخة منه.
٧ـ العصفور، الشيخ حسين: الأنوار اللوامع في شرح مفاتيح الشرائع، تحقيق الميرزا محسن العصفور، إصدار مجمع البحوث العلمية، البحرين، لا.ط، لا.ت.
٨ـ العصفور، الشيخ محمد بن أحمد: رسالة في أفضلية التسبيح في الأخيرتين، مخطوط يحتفظ الباحث بنسخة منه.

٩ـ العصفور، الشيخ محمد بن أحمد: مرآة الأخبار في أحكام الأسفار، مخطوط يحتفظ الباحث بنسخة منه.

١٠ـ القزويني، جودت: تاريخ المؤسسة الدينية الشيعية، الخزائن لإحياء التراث، ط٢، ٢٠١٤م.

١١ـ الماحوزي، الشيخ سليمان: أزهار الرياض، المجلد الثاني، مخطوط يحتفظ الباحث بنسخة منه.

١٢ـ الماحوزي، الشيخ سليمان: فصل الخطاب وكنه الصواب، مخطوط يحتفظ الباحث بنسخة منه.

١٣ـ المقابيّ، الشيخ علي بن الشيخ محمد: الرسالة الترجيحية، مخطوط يحتفظ الباحث بنسخة منه.

١٤ـ المقابيّ، الشيخ علي: رسالة في الجهر والإخفات، مخطوط يحتفظ الباحث بنسخة منه.

١٥ـ المقابي، الشيخ محمد بن علي: صفوة الصافي والبرهان، مخطوط يحتفظ الباحث بنسخة منه.

١٦ـ المكباس، محمد عيسى: مراسلات علماء البحرين، المطبعة العلمية، قم المقدسة، ط ١، ٢٠٠٢م.

١٧ـ نيبور، كارستن: وصف أقاليم شبه الجزيرة العربية، ترجمة مازن صلاح، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط١، ٢٠١٣م، ص ٢٩٢.

١٨ـ الوداعي، عيسى: الحركة العلمية في البحرين، مركز أوال للدراسات والتوثيق، ط١، ٢٠١٥م.